

نظرة جديدة في اعتد رايك (النابعة الفرياني)

د. زائد احمد ابراهيم

يتفق عدد من المعنيين بدراسة الاحداث التي عاشها الانسان العربي قبل الاسلام أن مهمة الباحث في تاريخ تلك الحقبة ليست باليسيرة، لما يكتنفها من غموض ولدته شحة في الأدلة المادية التي ورثناها عن ذلك التاريخ، مما كان مدعاة لتضارب في الآراء واختلاف في التفسيرات ولهذا صارت وسيلتنا إلى متابعة ذلك الماضي قاصرة على المؤلفات التي كتبت بعد طول من الزمن واتساع في المسافة الحضارية ولا ينبغي عن ذلك ما لهذا من أثر سلبي في كل عمل يراد به الوصول إلى حقيقة يهتم بها الباحث فيها. فهو عندما يرجع إلى هذه المؤلفات يجد نفسه أمام سيل طاع من الأخبار والروايات المتضاربة التي جمعت على غير هدي من منهج علمي يقوم على الدراسة الدقيقة. فالحدث التاريخي قد يتحول في بعض الأحيان إلى قصة كأن كاتبها يتصد إلى تسلية جمهوره، لا إلى تحايل. واضح لمعالم لحظة فرضت وجودها على انسان ذلك العصر. (١) وغالباً ما يتعد الأمر وتستعصي الحقيقة علينا عندما نتبين أن مؤرخي تلك الفترة يعتمدون إلى اقتباس ماقاله سادتهم دون إعمال بسيرة تنفذ إلى اعماق ماورثوه، بل الأعجب من هذا أن يمدد الخلف إلى نقل ما انتجه السلف دون أن يكلف نفسه عناء صياغة لغوية جارية، فالخبر نفس الخبر والاسلوب نفس الاسلوب (٢). ومهما كانت الصورة أو قربت فالأمر سواء بالنسبة اليها، إذ مادام المنهج واحداً فإننا نظل نأثني في منازة ذلك المؤرخ الذي نسي أن يرسم دروبها. وقد يرهقنا المسير ولما نشرف على واحدة نستظل بها، فهو نفسه لم يحن من ادوات البحث العلمي إلا خيالاً يجمع في لحظة ليلغي كل الحدود الفاصلة بين الحقيقة العلمية والغرائب والخرافات والمبالغات يقول الاستاذ جرجي زيدان في حديث له عن مؤلفي كتب التاريخ في هذا التاريخ إلى أمد غير بعيد مجموع غرائب وخرافات ومبالغات تتناقلها الأجيال بلا تحقيق ولا تمحيص ولا تردد بل نقل إلا اضطراباً وإبهاماً. وقد زادت في أثناء العصور الوسطى تليكاً على أثر انحطاط شأن العرب وذهاب دولتهم إذ ارادوا ستر ضعفهم بما يروى عن أجدادهم، فعمدوا إلى التفاخر بما لا يفهم الفاتحين وما كانوا عليه من المناقب العربية، فزادوا أخبارهم مبالغة أو جمعوها وأكثرها منها بلا تعديل ولا ضبط فغلبت الأوهام فيها على الحقائق وذهب الصحيح منها بجمرة الفاسد. (٣) وإذا كان للمؤرخين القدامى ما يفتنهم في مجانبتهم أصول المنهج العلمي في البحث،

-
- ١ - مقدمة ابن خلدون - مطبعة الكشاف - بيروت ص ٤ و ص ٩ وما بعدها
 - ٢ - انظر في هذا تاريخ الطبري، الكامل لابن الأثير، تاريخ ابن الوردي، كتاب المختصر في اخبار البشر لابن الفداء وغيرها.
 - ٣ - جرجي زيدان - العرب قبل الاسلام - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦٦ ص ٧

فما بال بعض مؤرخينا المحدثين ، ممن ارتضوا اخبار أولئك المؤرخين على تناقضاتها ، فصارت مؤلفاتهم لا تختلف من حيث الجوهر عما وقعت عليه أيديهم من كتب التاريخ (٤).

وأنا حين أبأ بجحي بهذا الحديث لم أقصد إلى الكشف عن الثغرات الموجودة في دراسة التاريخ العربي قبل الاسلام ، وإنما اردت أن يقدر القارى مقدار ما يمانية أي باحث قد يجد نفسه يبحث في مسألة تناولها أهل التاريخ والأدب معاً . وقد أكد هذه الحقيقة قوم عرفوا بزيارة علمهم وصبرهم على البحث فكان هذا التاريخ عندهم « طلاس ضاع سرها واستحال حلها » (٥).

وإذا كان ماصورنا به واقع المؤلفات التاريخية فيه شيء من التعميم ، فإن الأمر يزداد تعقيدا عندما يخوض المؤرخون في تاريخ الكيانات السياسية التي وجدت على الأرض العربية قبل الاسلام ، لأن الخوض في تاريخ تلك الكيانات يازم الباحث أن يكون شديداً الحذر وإلا ضاعت الفائدة المرجوة من مسعاه . وما يهمننا من أمر تلك الكيانات دولتان نشأت احدهما في العراق والأخرى في الشام ، وأعني بهما دوايت المناذرة والغساسنة ، لما لهما من صلة وثيقة بالحياة الأدبية في العصر السابق لظهور الاسلام بصورة عامة وبالإبنة الدواني بصورة خاصة . فقد ذكرت الأخبار أن ملوك هاتين الدولتين فتحوا الأبواب أمام الشعراء ليسبحوا بمجدهم ، لما قدموه من هبات وعطايا ، وما توفر لديهم من أسباب ترف أغرت الشاعر بالتخلي عن رسالته الانسانية ، وفرقت بينه وبين واجبه في الالتزام بقضية انسان ذلك العصر الذي كتب عليه أن يضطهده السادة ملوكاً كانوا أو شيوخ قبائل . وقد نسأل هنا هل استطاع المؤرخ أن يضع بين أيدينا حدوداً واضحة للدرب الذي يراد منا أن نسلكه ، بحيث نقدم لمعاصرينا مادة تتناسب في دقتها ومتطلبات عصر العلم ؟ للإجابة عن هذا السؤال استعين بما صادفني من الآراء التي وجدتها في أكثر من مصدر .

هناك شبه اجماع لدى المؤرخين المحدثين على ان تاريخ هاتين الدولتين العربيتين يلفه الغموض نتيجة ميل بعض المؤرخين القدامى إلى التلفيق الشديد إن في التاريخ أوفي اللغة (٦) . لكننا

٤ - وجدت مثل هذا في عدد من المؤلفات التاريخية الحديثة . اذكر منها مؤلف السيد عبدالعزيز سالم (في العصر الجاهلي - دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٠) ومؤلف الدكتور نبيه عاقل (تاريخ العرب القديم وعصر الرسول - دمشق ١٩٦٨) . إضافة إلى نماذج أخرى قد نتطرق إليها في أثناء البحث .

٥ - جرجي زيدان - العرب قبل الاسلام ص ٨

٦ - نولدكه - أمراء غسان/ ترجمة بندلي جوزي وقسطنطين زريق - منشورات الجامعة الأميركية المطبعة الكاثوليكية - بيروت - ١٩٣٣ ص ٥٤

وجدنا من يقول إن تاريخ دولة الحيرة قد يبدو أوضح من تاريخ الغساسنة . وفي هذا يقول الاستاذ يرسف غنيمه «ومهما كان من أمر غموض تاريخ دولة الحيرة، فإنه أوضح من تاريخ دولة الغساسنة في الشام ، واثبت منه لأنه كان مدوناً في كتب الحيرة ، مثبتاً في كنائسهم وأشعارهم ، وفيها أنسابهم وأخبار ومبالغ أعمار من ولي منهم للأكاسرة وتاريخ نسبهم وعليها كان معول المسلمين فيما أوردوا من أخبار الدولة » (٧) .

إن مثل هذا ليس بالجدل على المصادر العربية . فقد روي عن ابن الكلبي أنه كان يستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ، ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة وفيها ما كلفهم وأموارهم كلها (٨) . إلا أن مثل هذه الأخبار لابد أن تثير في النفس بعض التساؤل . ولعل أول ما يخطر بالبال لماذا لم يتدر لغير ابن الكلبي أن يطالع على تلك الكتابات . وسبب ذلك أن مثل هذا السؤال ربما خطر ببال الطبري نفسه، لذا تراه في الصفحة نفسها يقول « فاما ابن حميد فإنه حدثنا في أمر ولد نصر بن ربيعة ومصيرهم إلى العراق غير الذي ذكره هشام » . ثم أين ذهبت تلك الكتابات ؟ إن من قاموا بالحفريات هناك لم يشروا حتى الآن على كتابات جاهلية تتحدث عن تاريخ تلك المداينة القديمة السيئة الحظ (٩) .

رب قائل يقول هل يمكننا أن نرفض ما جاءنا من هذه الدولة لأننا لانملك الدليل المادي الذي يبرز ما رواه الاخباريون ؟ للإجابة عن هذا السؤال نود القول أولاً إننا لانرفض تلك الأخبار برمتها. إنما كنا نبغي أن نذكر مثل هذا السؤال أن دعوى وضوح تاريخ الحيرة لانملك السند الذي يبعد عنها شبح الشك، وبخاصة إذا عرفنا ان ابن الكلبي وهو فارس الحلبة في هذا الميدان ما كان بالمرجع الذي يمكن الاعتماد عليه اعتماداً كلياً ، لان خياله الجامح أباح له أن يضع من أخبار الحيرة ما يريه من الأساطير إضافة إلى ما أثقلت به من تناقض ولكي تتضح الصورة في ذهن القارئ الكريم نورد في الآتي رأي الدكتور جواد علي في هذا الرجل حيث يقول « وتاريخ الحيرة مع سعتة وكثرة ما يروي الاخباريون منه لا يخلو بالنسبة الي من اضطراب وتناقض . فنعنا أحياناً إلى العجب من قول ابن الكلبي إني كنت استخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من

٧ - يوسف رزق الله غنيمه - الحيرة المدينة والمملكة العربية - مطبعة دنكور الحديثة - بغداد ١٩٣٦ (المقدمة)

٨ - تاريخ الطبري - طبعة غوييه - ج ٢ ص ٧٧٠

٩ - د. جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام - مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٩٥٤ ج ٤ ص ٨

بع الحيرة . فرجل ياعى هذه الدعوى ويستقي اخباره من مواردها الأصلية لايحوز صدور روايات عنه يناقض بعضها بعضاً ، وأخبار لا تؤيد هذا الزعم . فلارجل روايات عن حادث واحد تثبت إن صح أنها له ، أن الرجل لم يكن صاحب رأي ولا اجتهد في ما يروي « (١٠) وقد يور في خلدنا أن التاريخ العربي لم يكن من صنع ابن الكابي وحده . فهناك من الاسماء مثل الطبري ، وحمزة ، والمسعودي واليعقوبي وغيرهم ممن يمكن الاعتماد عليهم لكن هذا الاعتقاد يتضاءل إلى الحد الأدنى عندما نواجه بذلك التناقض العجيب فيما أورده هؤلاء وغيرهم من الاخباريين مع أنهم يتمتعون في الكثير على مصدر واحد . ترى كيف نفسر هذه الظاهرة بنير القصور عن امتلاك طرف من الحقيقة (١١) .

ويبدو أن الاستاذ يرسف غنيمة شعر فيما يبد أن الأرض التي يتف عليها كانت رخوة مما دعاه إلى التراجع عن حماسه للدولة التي أراد مخلصاً أن يندم لنا صورة قريية من الحقيقة عنها ، فاعترف يقول « إني مهما بذلت من الجهود لأخرج كتابي هذا كاملاً مستوعباً تاريخ مائة الحيرة ومملكاتها ، فإن عقبات كأداء حالت دون تحقيق هذه الرغبة بأنهم مظاهرها ، منها نزر الأخبار وتضاد المرويات واضطراب الروايات وطموس الحقائق وفقدان الوثائق على توالى الزمان وتعاقب الحدثان » (١٢) .

وإذا انتقلنا إلى تاريخ دولة العباسية فإن أول ما يجابهنا كون أمرها ليس أقل تعقيداً من الذي لقيناه مع دولة المانذرة . وبخاصة إذا تبينا أن عناية المؤرخين العرب بتاريخ هذه الدولة كانت أقل من العناية بمقيقتها . وحتى هذا القليل كان كثير الاختلاط والاضطراب لتناقضه ونقصه ومخالفته في بعض اجزائه لحوادث الدول المعاصرة (١٣) . ويرد الاستاذ نولدكه سبب هذا إلى جهل المؤرخين بتاريخ تلك الدولة فهم لم يكونوا يرفون منه إلا أن ولاد الشام كانت يرماً ملكاً لبني جفنة . وقد بالغوا كثيراً في تقاير مدة حكمهم ويكفي هنا أن أشير عرضاً - والقول لنولدكه - إلى أن حمزة ينسب بعض الأبنية إلى امرأ من بني جفنة لم تثبت حقيقة وجودهم بحد « (١٤) ضمن هذا الاطار التاريخي يجدر بنا أن نقف عند

١٠ - جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٠ ، ١١ . وقد ذهب الدكتور شوقي ضيف إلى ماذهب اليه الدكتور جواد علي - انظر في هذا كتابه - العصر الجاهلي - دار المعارف

مصر - ط ٣ ١٩٦٠ ص ١٥٥

١١ - د جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١١

١٢ - يوسف غنيمة - الحيرة - المقدمة .

١٣ - جرجي زيدان - العرب قبل الاسلام - ص ٢٤٧

١٤ - نولدكه - امرأ غسان - ص ٥٥ انظر في هذا كذلك - فيليب حتي - تاريخ العرب المجلد

الاول ط ٣ - مطبعة العالم العربي - القاهرة ١٩٥٢ ص ٩٢

ملوك الدولتين، لأن أمر البعض منهم يهنا بتدر ماله من صلة بمحاولتنا هذه . فالمتبع لأخبار أولئك الملوك لابد أن يجاب: بالغموض الذي يكتنف أخبارهم . من ذلك أن الاخباريين لم يتفوا على قائمة واحدة على الرغم من كل مزاعم ابن الكلبي وغيره . وقد وجدت من القوائم ما يثير العجب . فمن الاخباريين من يطيلها ومنهم من يقصرها ، ومنهم من يستقي قائمة دونما تمحيص لتكون نسخة أخرى لعمل سابق (١٥) . وهذا الاختلاف في القوائم التي بين أيدينا وضع أمام المؤرخين المحدثين من عرب ومستشرقين صعوبات جمة ، ما زالت تجابه كل من يرغب في دراسة تاريخ هاتين الدولتين ومعرفة حقيقة أمر ملوكهما (١٦) . فهل من تفسير لهذه الظاهرة عدا الذي اشرنا اليه من قبل ؟ أظن أن ثمة مؤثرات ولدها طبيعة الحياة الأدبية كان لها دور بارز في هذا المضمار . فقد تولدت في نفسي قناعة بأن الشعر كان مصدرا يعتمد به في دراسة حياة أولئك الملوك . وما بين أيدينا من المصادر يعزز من قناعتي هذه . ذلك أنني وجدت في أكثر من واحد منها أن المؤرخ يستعين بتول ينسب لهذا الشاعر أو ذاك عندما يحوز الدليل لاثبات صحة دعواه . ولا اظننا بحاجة إلى اثبات ما يتطلبه هذا المنهج من حذر شديد وهو ما نفتقده لدى العديد من الاخباريين . يضاف إلى الشعر ما خلفه القصص التاريخي من أثر ، يرم أضفى على سيرة أولئك الملوك مسحة اسطورية تبعد كثيراً عن ارض الواقع . وقد يزداد الأمر تعقيداً وغموضاً عندما يوقعنا الشاعر أو القصص في حيرة تأتي من عدم المقدرة على التمييز بين جماعة مختلفة من أولئك الملوك يحملون الاسم نفسه (١٧) . وكمثل اسوقه ليتضح في اذهاننا ما كان للشعر من أثر في اضطراب اخبار أولئك الملوك ، أن الاستاذ نولدكه احصى المسافة الزمنية بين اول ملك غساني اتصل به النافذة الديباني وبين آخر عهد له بملوك الغساسنة لما جاء في القائمة التي وضعها حمزة الاصفهاني في فوجدها في حدود خمسين ومئتين من السنين . والأمر قد يبدو معكوساً ، فقد يطول عمر الشاعر نتيجة تطبيق خاطيء على ملوك الغساسنة كما حدث لحسان بن ثابت وابي زيد الطائي (١٨) .

١٥ - يستطيع القارى ان يرجع في هذا إلى العديد من كتب الاخباريين العرب . ولكنني اذكر على سبيل المثال قائمة ابي الفداء في مؤلفه - كتاب المختصر في اخبار البشر - دار الفكر دار بيروت ١٩٥٦ ، لان قائمته كانت حسب ظني اعجب ماوردنا عن ملوك الغساسنة.

١٦ - جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٢

١٧ - تشير دائرة المعارف الاسلامية إلى مسألة التشابه في الاسماء وما يسببه هذا التشابه من تعقيد ص ٩٥٣

The Encyclopaedia of Islam Vol III ص ٩٥٣

١٨ - انظر في هذا ما ذكره حمزة الاصفهاني في كتابه - تاريخ سني ملوك الأرض والانباء

- منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٦١ ص ١٠١ - ١٠٣ ، وما اثار اليه

الاستاذ نولدكه - امراء غسان - ص ٧١

كذلك فإن عدم امتلاكنا رؤية واضحة لواقع الحياة الأدبية في بِلَاط المناذرة يجعلنا غير قادرين على الاعتداد بالشعر بوصفه وثيقة تاريخية « ما دامت معطيات المؤرخين عن تلك الحياة في وقت تدوينها مختلطة بناصر اسطورية ومثقلة بالنوادر ومشوهة بتأثير الوسط العراقي وبِلَاط الخلافة » (١٩) .

هناك تساؤل قد يثيره البعض ، إذا كنا لانطمئن أحياناً إلى ما ذكره الاخباريون العرب ، ترى الا يمكن أن تكون المصادر اليونانية واللاتينية مساعداً لنا ؟ يتول الدكتور جواد علي في معرض حديثه عن هذه المصادر . إن أهميتها قد تبدو محدودة في القاء الضوء على تاريخ المناذرة والغساسنة ، وهي عدا هذا ليست بعيدة عن مواطن النقد والشبهات . والشئ نفسه قد يسمح على المؤلفات السريانية ، فهو لا ينكر فضلها في تدوين هذا التاريخ ، ولكنها كما يرى ليست على الاجمال كالمؤلفات اليونانية واللاتينية في الدقة وفي النقد « (٢٠) .

غير أن مسألة يتداخل فيها التاريخ والحياة الأدبية كالمسألة التي هي موضع بحثنا قد لا تجد في المصادر الأجنبية قبساً تهدي به . ولهذا السبب لا يبقى ما يساعدنا على تأويل امرنا ، الا المصادر العربية القديمة والحديثة ومؤلفات المستشرقين . وما دامت المسألة التي نود معالجتها ذات صلة وثيقة بالحياة الأدبية كما أسلفنا ، لذلك نود الوقوف عند مصادر الدراسات الأدبية ، وبخاصة ما يتعلق منها بالشعر العربي قبل الاسلام ، كي نقول كلمتنا فيها .

ليس بعيد عن إلنا أن ما يصحح على مصادر الدراسات التاريخية يصحح كذلك على مصادر الدراسات الأدبية ، من حيث عدم قدرتها على تمكيننا من رؤية واضحة لعطاء اسلافنا . وقد تكون الاسباب كثيرة لكنني ألخص في الآتي عدداً منها هي حسب ظني ذات أهمية خاصة .

- ١ - إن الرواية الشفوية كانت المعول عليها . ولم يحدث أن دون العرب شعرهم إلا بعد أن اتسعت الشقة بين الشاعر والمدون . ونحن أدري بما لهذا من أثر سلبي ، وبخاصة اذا أضفنا استغلال عدد من الرواة لهذا الواقع فحملوا على الشعر الكثير الذي افسده (٢١) .
- ٢ - إن التحولات التي طرأت على المجتمع العربي آنذاك ، ولدت موقفاً حضارياً جديداً ،

١٩ - بلاشير - تاريخ الاب العربي - المجلد الثاني - ترجمة د. ابراهيم كيلا في مطبعة

وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٣ ص ١٨٢ ، ١٨٣

٢٠ - جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام ص ١٣ - ١٤

٢١ - ابن سلام طبقات فحول الشعراء - دار المعارف - مصر ١٩٥٢ ص ٤٩ - ٥٠

اخضع عملية استيعاب التراث الشعري العربي لمؤثرات آتية أحياناً ، مما ألقى ظلالاً
حالت دون رؤية سليمة لذلك الماضي .

٣ - عدم وجود ضوابط زمنية تعيننا على متابعة المراحل التي مر بها الشاعر ، وانعدام
تلك الضوابط عندما يتعلق الأمر بتناجه الفني ، مما يجعل عملنا في تتبع تطوره ضرباً
من الحسد قد يصل حد المجازفة .

٤ - هنالك قضية نلاحظها فيما بين أيدينا من مصادر تتمثل في أن البعض منها عدا عن
مجانبة المنهج العلمي ، يبدو أحياناً وكأنه لا يختلف عن مجموعة من حكايات أريد بها
أن تكون مادة يتسامر بها أبناء الطبقة السائدة . وحسب ظني أن الجانب الترفيهي
يغلب فيها للدرجة تضائل عندها الجانب العلمي . أما سبب هذا فمرده الى أن كثيراً من
المؤلفين ارتضوا لانفسهم الاندماج الكلي بإيرولوجية هذه الطبقة. (٢٢) وكثّل على
هذا نذكر الاغاني والعقد الفريد على مقدار فضلها على الأدب العربي .

إن هذه المصادر نقلت اخباراً كثيرة عن سيرة النابغة الذبياني ، واهتمت بعلاقته بملوك المناذرة
والغساسنة ، مع تركيز شديد على علاقته بالنعمان بن المنذر . ويبدو لنا أن بعض المؤرخين
أباح لنفسه أن يصور العلاقة بين النابغة والنعمان بشكل يفوق كل التصورات التي في
أذهاننا عما كان بين الملوك والشعراء . لكن هذا لم يمنعنا من أن نقف عند هذه المسألة وقفة
متأنية تحذونا في ذلك رغبة من في نفسه شوق إلى استخلاص ما يتبله المنطق السليم . وأكثر
ما عمق الرغبة هذه أن وجدنا المحدثين ممن شغلوا بسيرة هذا الشاعر وبين قانع بما لديه حتى
صار عنده من المسلمات التي لا تحتاج الى مناقشة كما فعل ديرنبورج في مقدمة ديوان النابغة (٢٣) ؛
وبين باحث عن مبرر يخضع لمؤثر حضاري آني كما فعل الدكتور طه حسين وتبعه العشماوي
وشوقي ضيف والدسوقي وإيليا حاوي (٢٤) .

لعل أول سؤال يتبادر الى الذهن يتعلق بمدى اقتناعنا بما شحنت به كتب الادب من
حكايات قيلت في صلة النابغة الذبياني بالنعمان ملك الحيرة . ولسنا بحاجة للاجابة عنه لأننا
سبق أن أشرنا في بدء دراستنا هذه الى ضرورة الحذر . غير أن السؤال الذي يمكن أن يتصل

٢٢ - كولنجود - مبادئ الفن - ترجمة د. احمد حمدي محمود - الدار المصرية . للتأليف
والترجمة ١٩٦٦ - يتحدث المؤلف في ص ١٥٥ عما يشبه هذه الظاهرة في الادب الاوربي.

٢٣ - د . محمد زكي العشماوي - النابغة الذبياني - دار المعارف - مصر ١٩٦٨ - ط ٢ ص ١٠٠

٢٤ - سيأتي الحديث عن هذا في الاقي من البحث .

والمسألة ذاتها يختص بهذين الرجلين . فهل كانا معروفين تمام المعرفة عند من روى لنا سيرتهما . ولنبدأ أولاً بالناوفة .

هناك شبه اجماع على أن حياة هذا الشاعر لم تكن بالوضوح الذي يميننا على تقرير حقيقة ناصعة فهو كما يتول الدكتور طه حسين «من الشعراء الجاهليين الذي عمي أمرهم على الرواة فلم يعرفوا عن حياتهم شيئاً أو لم يكادوا يعرفون عنها شيئاً» . (٢٥) أما بلاشير فإنه لا يختلف عن هذا الرأي عندما يتول (إن شخصية الناوفة ذات «تاريخية» لا يمكن انكارها بالرغم مما انتابها من تشويه احدثته الحكايات والنوادر) . (٢٦) وتبدو وجهة الرأيين عندما نلجأ الى مصادر سيرته . مما ان تقرأ شيئاً عن الرجل حتى نكتشف أن الرواة عجزوا عن تمكيننا من تفسير محدد لسبب تلقيبه بالناوفة . وقد تسألني قائلًا وما قيمة هذا؟ أقول إن اهمية هذه المسألة تظهر بشكل واضح عندما يتعلق الأمر بالسن التي قال فيها الشعر . (٢٧) وعدا هذا فان الأمر يبدو أشد تعقيداً عند الحديث عن شعره . فهل نحن مطمئنون الى ما وصلنا منه كل الاطمئنان؟ هنا لابد من تحديد واضح ، اذ على أساس منه قد نهتدي الى طرف من الحقيقة .

لدينا أكثر من راو لشعر الناوفة ، وهم ابن بصرى وكوفي . فأبي الفريقتين أوثق؟ قبل الاجابة عن هذا السؤال يحذرنا بلاشير من الاعتماد التام على المؤرخين العراقيين الذين حاولوا أن يؤكدوا مكانة هذا الشاعر في بلاط قبلوا وجوده ، لكن عطاءه الشعري لا يهدينا الى تقبل هذه المزاعم لان ما يعد من شعره الذي يزعم المؤرخون أنه قيل في ملوك المناذرة لا يتفق والتقليد الذي ازهر في اواسط الحيرة الحضرية . (٢٨) وهذا الرأي يبدو مقبولا تماماً اذا اكتشفنا بعض التناقض القائم بين مميزات شعر الناوفة وطبيعة البيئة العراقية التي اختلفت عن البيئة الصحراوية من حيث علاقات الانتاج . فهي بيئة كانت قد دخلت في علاقات الانتاج الزراعي . لكنك تقرأ شعر الناوفة فلا تجد فيه الا ما يؤكد عمق انتمائه الى علاقات الانتاج الرعوي (٢٩) وهي علاقات أقرب الى الغساسنة منها الى المناذرة ، وبخاصة اذا عرفنا

٢٥ - د. طه حسين . من تاريخ الادب العربي - المجلد الاول - دار العلم للملايين : بيروت ١٩٧٠ ص ٢٩٩ .

٢٦ - بلاشير - تاريخ الادب العربي - ج ٢ ص ١٢٧ .

٢٧ - يمكن الرجوع في هذا الى الاغاني والشعر والشعراء والخزانة على سبيل المثال .

٢٨ - بلاشير - تاريخ الادب العربي ج ٢ ص ١٢٨ .

١١٤-١٠٧ (Rad · Beograd) Umetnost i drustmi zivot (Plehanof (29)

يمكن الرجوع الى هذا الكتاب حيث يتفضل بليخانوف في الحديث عن سمات الفن الرعوي

أن الواقع الغساني أشد التصاقاً بالبادية . (٣٠) ربما ينهم من هذا أني أرمي الى نفي ماجاءنا من شعر النابغة . إنني لم أرد أكثر من تأكيد ضرورة الحذر من قبول ما نملك من نصوص تنسب إلى هذا الشاعر . وكان ابن سلام قد أشار الى هذا في بعض مما نسب اليه (٣١) أما اما ما يخص الأجوبة عن السؤال المطروح ، فالدكتور شوقي ضيف يرى بأننا لانستطيع أن نعتد في دراسة شعر النابغة الا على مارواه الاصمعي (٣٢) لان الاصمعي كان أعرف الرواة بالصحيح والمخول ، وقد أيده الدكتور عمر الدسوقي في تزكية الرجل . (٣٣) إلا أن الدكتور شوقي ضيف والدسوقي يترفان أن عمل الاصمعي لم يسلم من التحريف والزيادة . ولهذا نرى الدكتور شوقي ضيف يعمد إلى تنقية مارواه الاصمعي فيحذف خمس قصائد ويبقى على سبع عشرة مع إقراره بأنها لاتخلو من بعض أبيات أدخلت في روايتها (٣٤) وإني وان كنت أملك شيئاً من التحفظ على دراسة الدكتور شوقي ضيف ، لكنني أسمح لنفسني بأن اعتمد الرأي القائل : ان شعر النابغة حمل في طياته الكثير مما لاتصح نسبته اليه لأن النحل قد تغلغل فيه أكثر مما تغلغل في شعر غيره ممن أطلق عليهم الدكتور طه حسين اتباع المدرسة البيانية (٣٥) .

بين هذا الشعر سبع قصائد قيل أن النابغة الذبياني قصد بها النعمان بن المنذر معتذراً . لكن الباحث المتفحص قد يسأل نفسه ، لماذا كان اعتذار النابغة لهذا الملك ؟ هل ارتكب ذنباً بحقه فأثار في نفسه كوامن غضبه ، فكان لا بد من أن يزول باعتذار ياتسـه هذه ما علق في قلب النعمان ؟ مثل هذا وغيره من الاسئلة تدور في الذهن كلما حاولنا ان نفهم الحادثة فهماً يزول الغشاوة التي القت بثقلها عليها . وقد وجدت أن أفضل سبيل أسلكه هو في الرجوع إلى الاصول التاريخية لعلاقة النابغة الذبياني بالمناذرة ، فلربما يتودني تحليلها الى رأي نظمئن اليه .

٣٠ - نولدكه : ادراء غسان - ص ٥٢ - ٥٣

٣١ - ابن سلام - طبقات فحول الشعراء ص ٤٩ - ٥٠

٣٢ - د. شوقي ضيف - العصر الجاهلي - ص ٢٧٨

٣٣ - د. عمر الدسوقي - النابغة الذبياني - دار الفكر العربي - مطبعة الرسالة - مصر ١٩٦٦ ص

ط ٤ ص ١٣٣

٣٤ - د. شوقي ضيف - العصر الجاهلي - ص ٢٧٧

٣٥ - د. طه حسين - من تاريخ الادب العربي ص ٣٠٢

يزعم بعض الرواة أن اتصال النابغة الذبياني بملوك الحيرة يعود إلى زمن يسبق تولي النعمان بن المنذر ملك الحيرة . فابن قتيبة يدعي أن النابغة اتصل بجده وإبيه (٣٦) ويبدو أن بعض مؤرخي الادب من المحدثين أغراه الرأي فجعل صلته بالحيرة قائمة منذ عام ٥٣٠ م (٣٧) . لكنني أرفض مثل هذا الزعم اعتماداً على ابن سلام الذي يرى أن الذي اتصل بالمناذرة في ذلك التاريخ كان النابغة الجعدي وليس النابغة الذبياني . ويرد في هذا المجال قول الجعدي :

تذكرت شيئاً قد مضى لسبيله

ومن عادة المحزون أن يتذكراً

نداماي عند المنذر بن محرق

فأصبح منهم ظاهر الأرض مقفراً

كهول وفتيان كأن وجوههم

دنائير مما شيف في أرض قيصر (٣٨)

والموقف نفسه أفضه من الرأي القائل أن النابغة الذبياني كان على صلة بعمرو بن هند ملك الحيرة . ولي في قول ابن سلام ما يؤيد صحة الموقف « وكان النابغة الذبياني مع النعمان بن المنذر وفي عصره ولم يكن له قدم » (٣٩) وعدا هذا فإن الديران خلو من أية إشارة تستند دعوى صلة النابغة الذبياني بعمرو بن هند . ولكن سائلا قد يسأل من أين كان مصدر هذا الزعم؟ نجيب عن هذا بالقول إن الرواة خلطوا بين عمرو بن الحارث ملك الغساسنة وعمرو بن هند ملك المناذرة، كما اختلط الأمر على بعضهم بين النابغة الذبياني والنابغة الجعدي .

٣٦ - ابن قتيبة - الشعر والشعراء ج ١ دار الثقافة - بيروت ١٩٦٤ ص ٩٨

(ذكر بروكلمان أن النابغة نادم المنذر بن الثالث والرابع والنعمان بن المنذر ، ولا ندري ما السند الذي اعتمد بروكلمان في زعمه هذا .

بروكلمان - تاريخ الادب العربي . ترجمة د. عبد الحليم النجار - ج ١ ط ٢ - جامعة الدول العربية دار المعارف - مصر ١٩٦٨)

٣٧ - عمر فروخ - تاريخ الادب العربي ج ١ - دار العلم للملايين بيروت ١٩٦٥ ص ١٧٨

٣٨ - ابن سلام الطبقات ص ١٠٤ - ١٠٥

٣٩ - ابن سلام - الطبقات ص ١٠٤ (لقد اوردت القول هذا لأني أردت به نفي ما يقال عن

صلة النابغة الذبياني بعمرو بن هند ، لكنني في الوقت

ذاته سأناقش في الآتي ما يقال عن صلة النابغة بالنعمان

بن المنذر) .

فقد ظن بعضهم ان قصيدة النابغة التي مطلعها .

أثاركة تدلها قطـام

وضناً بالتحية والكلام

كانت قد قيلت في عمرو بن هند ، وكان قد غزا الشام بعد مقتل المنذر (٤٠). لكنك عندما تقرأ القصيدة كما رواها الاصمعي تجد ان الغازي لم يكن عراقياً بل كان واحداً من ملوك الشام . ويرد نولدكه سبب هذا الخطأ إلى اعتقاد الرواة أن الأمير الذي يكنى في هذه القصيدة بـ (ابن هند) . هو عمرو بن المنذر . لكن هذا الاعتقاد سرعان ما يبدو خطؤه عندما نكتشف ان البلد الذي تعرض للغزو ليس الشام وانما كان العراق حيث يتول النابغة :

فدوخت العراق فكل قصر

يجلل خندق منه وحام

كذلك نرى ان الجيوش كانت قد قدمت من الشام بدليل بيت آخر يتول النابغة على أثر الأدلة والبغايا

وخفق الناجيات من الشام

ناهيك بما في القصيدة من اشارات تنطبق على امير غساني لاعلى أمير لخمى . من ذلك ان الامير الممدوح كان قد وجه احدى غزواته إلى الأنم . فأوردهن بطن الأنم شيئاً

يصن المشي كالخداء الثؤام

وهو موضع يتبع في بلاد سليم على بعد تسعة اميال فقط من المسلح ، والمسلح هو المنزل الرابع بين مكة والكوفة . يضاف إلى هذا ذكر (الحسمى) . وأضحى ساطعاً بجبال حسمى

دقاق الترب محترم القنم

» وهو موضع لا يزال إلى اليوم يعرف بهذا الاسم . وقد كان قبلاً منزل قبيلة جذام ، وكان داخل ولاشك في اعمال بني جفنة — كما يتول نولدكه — « (٤١) .

(٤٠) ديوان النابغة الذبياني-تحقيق د شكري فيصل- دار الفكر - بيروت ١٩٦٨ ص ١٥٨

٤١- راجع في كل ما قبل بشأن القصيدة في امراء غسان - نولدكه ص ٣٩ - ٤٠
وشعراء النصرانية قبل الاسلام - لويس شيخو - ح ١ ط ٢ - دار المشرق - بيروت ١٩٦٧ والنابغة - د . العشماوي ص ٥٤ - ٥٧

٤٢ - الاغاني ج ١١ - دار الكتب - مصر ١٩٣٨ ص ١٩ - ٢٠

أما كنيته (ابن هند) فان هذه الكنية تنطبق كذلك على امرء غسان لان اسم هند لم يكن مما اختص به المناذرة دون الغساسنة ولنا في شعر النابغة الذبياني ما يؤيد صحة ما ندعى. واليك في الآتي ما رواه صاحب الاغانى من ابيات قيل ان النابغة خص بها النعمان بن الحارث الأصغر ملك الغساسنة يرم كان غلاما صغيرا .

هذا غلام حسن وجهه

مستقبل الخير سريع التمام

للحارث الاصغر والحارث الـ

أعرج والحارث خير الأنام

ثم لهند ولهند وقد

اسرع في الخيرات منه إمام

سنة آبائهم ماهم

هم خير من يشرب صوب الغمام (٤٢)

من كل ما تقدم يتضح لنا وهم من قالوا بأن النابغة اتصل بالمنذر او بممرو بن المنذر . ولهذا لا يبقى أمامنا الا معالجة الأخبار التي رويت عن اتصال النابغة بالنعمان بن المنذر ، مادام الدوران لا يتم لنا غير ما يشير إلى هذه الصلة . والحديث عن هذه المسألة لا بد أن يتمودنا إلى سؤال ، ربما يشبه السؤال الذي سبق ان اجبنا عنه عند حديثنا عن النابغة . ترى إلى اي مدى كان النعمان معروفا لدى الاخباريين ؟ .. هذا السؤال دفعني إلى دراسة ما سجلته كتب التاريخ عن سيرته وكان ما أثار دهشتي ان وجدت ان ما قيل فيها لا يتناسب وحجم السعة التي كان يتمتع بها في مخيلة المؤرخين . فهي في الغالب مجموعة من الأخبار مثلت اطاراً تاريخياً مهلهلاً لنصوص شعرية او أمثال تكشف بنفسها عن زيفها ، مما جعلها أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة التاريخية (٤٣) فالرجل مجهول الهوية ، لكن الاخباريين صنعوا منه اسطورة ودلينا على هذا ان القصة التي حكيت بمناسبة تسنمه عرش الحيرة أكبر برهان على ما نقول والا كيف يصدق العقل ان كسرى وهو المسيطر على العراق لا يعرف شيئا عن اولاد المنذر (٤٤) ثم نمضي في متابعة سيرته فنكتشف أن الرواة على اختلاف كبير في نسبه . فمرة تراه من

(٤٣) جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٩٠ «ولانعلم من أعمال النعمان

شيئا كثيراً يتناسب مع المدة التي حكمها » انظر كذلك روتشتاين ص ١١١

٤٤ - ذكرت القصة في اكثر من مصدر . وعلى سبيل المثال يمكن للقارئ الرجوع إلى تاريخ

المعقوبي - المجلد الاول - ص ٢١١ - ٢١٢ و يوسف غنيمه - الحيرة ص ٢٠١ ، ٢٠٢

بتيعة ربيعة بن نصر (٤٥) ومرة من ولد قنص ابن معد (٤٦) واخرى ان والده المنذر من أعقاب ساطرون ملك الحضرم من تنوخ قضاعة ، وغير ذلك انه من ولد عجم بن قنص الا ان الناس صحفوا عجم وجعلوا مكانه لخم (٤٧) الا أننا نلمس من هذا الفيض المشوش ان الاخباريين يخلطون بينه وبين النعمان بن الحارث ملك الغساسنة . وهأنا اروي ما قاله البلاذري في نسب النعمان بن المنذر «وقال بعض الرواة : لم يبق لقنص بن معد عقب وكان النعمان بن المنذر من تميم ونسب إلى لخم . وان عمر بن الخطاب أتى بسيف النعمان فأعطاه جبير بن مطعم وقال له — وكان نساوة — ممن كان النعمان ؟ فقال من قنص بن معد واحتج من روى هذا بتول النابتة الذياني .

فان يرجع النعمان ففرح ونبتهج

ويأت معدا ملكها وربيعها (٤٨)

وعندما نرجع إلى ديوان النابتة نجده قد قال البيت والذي بمده في النعمان بن الحارث الأصغر .
واليك البيت التالي لتؤكد من صحة ما ذهبنا اليه .

ويرجع إلى غسان ملك وسؤدد

وتلك المنى لو اننا نستطيعها (٤٩)

أما كنيته بـ (أبي قابرس) فهي كما بدالي من صنع الشعراء . لكنها لم تخل من اختلاف في أصلها يقول الزبيدي في التاج «والقابرس الرجل الجميل الوجه الحسن اللون . عن ابن الاعرابي (وابرة قابرس) كنية النعمان بن المنذر بن امرئ القيس بن عمرو بن عدي اللخمي (ملك العرب) وجعله النابتة أبو قبيس للضرورة مصغره تصغير الترخيم فقال يخاطب يزيدا بن عمرو بن خويلد .
فان يتدر عليك أبو قبيس

تخط بك المنية في هوان

وقابرس اسم اعجمي (معرب كادوس) وبه لقب الملوك الكيانية » (٥٠) وبجئت عن

٤٥ - الطبري - غويية ج ٢ ص ٧٧١ وابن خلدون - كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر

ج ٢ مطبعة النهضة - مصر ١٩٣٦ ص ٤٧ - ٤٨

٤٦ - البلاذري - انساب الاشراف ج ١ معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية بالاشتراك

مع دار المعارف ١٩٥٩ ص ٢٣ ، وسيرة ابن هشام ج ١ مطبعة المدني مصر ١٩٦٣ ص ٥

٤٧ - ابن خلدون - كتاب العبر ص ٨٤٧

٤٨ - البلاذري - انساب الاشراف ص ٢٣

٤٩ - ديوان النابتة : تحقيق د ٠ شكري فيصل - القصيدة ص ١٢٣

٥٠ - الزبيدي - تاج العرويس - المجلد الرابع - مطابع دار صادر - دار بيروت ١٩٦٦

(انظر مادة قيس) ان البيت الذي يستشهد به صاحب التاج يرد ضمن قصيدة شك الدكتور

شوقي ضيف في نسبتها إلى النابتة . العصر الجاهلي - ص ٢٧٨

الكلمة في المعجم الذهبي ، فوجدت «كادوس» اسم احد ملوك الكيانية ، ينسب الاسم بعضهم إلى نمرود او فرعون وتعني طاهر ، لطيف ، أصيل . (٥١) لكن حمزة الاصفهاني يتول فيه « وقرأت في بعض كتب السير أنه أحدث ببابل وبني بنية شاهقة في الهواء ، وأنا اقدرها البنية التي وراء بغداد المسماة بالعرقوف » . (٥٢) وفي هذا الاطار الذي يجمع فيه خيال الاخباريين يجعل ابن الاثير سني ملك كادوس هذا تفوق في عددها ما يمكن أن يتصوره العقل . (٥٣) وهناك من يحاول أن يجد للكلمة أصلاً عزياً ، فيجعلها مأخوذة من القبس وهو النار أو الشعلة من النار . (٥٤) ومهما يكن من أصل الكنية فقد ساورني الشك في صحة نسبتها إلى النعمان بن المنذر . وتأيد الشك عندما وجدت :

١ - أن الكنية نفسها كانت قد اطلقت على غيره . فابن الاثير يروي في حديثه عن يوم الرحرحان بيتاً للحارث بن ظالم يخاطب به النعمان بن امريء القيس جد النعمان بن المنذر فيقول :

حسبت أبا قابوس انك مخفري

ولما تذق ثكلاً وأنفك راغم (٥٥)

كذلك يثبت لويس شيخو بيتاً للمتملمس ترد فيه الكنية نفسها
إني كساني أبو قابوس مرفلة

كأنها سلخ ابكار المخاريط

ونحن نعرف أن هذا الشاعر لم يتصل بالنعمان بن المنذر . وبخاصة إذا اخذنا بالتاريخ الذي حدده شيخو لوفاته وهو عام ٥٨٠ م . (٥٦)
٢ - إن الصفات التي تدخل ضمن اطار (قابوس) لا تنطبق اصلاً على النعمان بن المنذر . فقد كان الرجل دميم الحلقة ، أحمر ، أبرش قصيراً . وهذا ما قوى جانب خصومه

(٥١) - محمد التونجي ، المعجم الذهبي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٩ ص ٤٥٧

٥٢ - حمزة الاصفهاني . تاريخ سني ملوك الارض والأنبياء ص ٣٥

٥٣ - ابن الاثير - الكامل في التاريخ ج ١ - دار الطباعة المنيرية - مصر ١٣٤٨ هـ ص ٢٢٠

٥٤ - محمود شكري الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ٣ ط ٣ دار الكتاب

العربي - مصر ١٣٤٢ هـ ص ٢٠

٥٥ - ابن الاثير - الكامل في التاريخ ص ٣٤١

٥٦ - شيخو - شعراء النصرانية ص ٣٣٠ - ٣٤٨

في التهكم به . كذلك كان سريع الغضب . (٥٧)

٣ - إن الأصل الفارسي يدعو إلى التساؤل . ذلك أني لم أجد غير ملك واحد سمي بهذا الاسم على كثرة ما يذكره الأخباريون من أسماء ملوك الفرس . وما يميز الشك أن حمزة الأصفهاني يحذرننا في بدء حديثه عن ملوك الفرس بسبب كثرة الفساد فيما جاءنا من أخبار وروايات عنهم . (٥٨) ويبدو أن الطبري خالجه بعض الشك ، فنسب الاسم إلى واحد من أهل الكهف مع شيء من التحريف البسيط ، إذ يتول والتاسع قالوس . (٥٩)

٤ - هناك عدة أحداث وقعت على مر تاريخ المناذرة تجدها نسبت لأبي قابرس هذا . لكنك سرعان ما تلاحظ أن صاحبها عمرو بن هند أو المنذر أو غير النعمان المعني بإراستنا . من ذلك أنه كان له يرمان يرم يرأس ويرم نعيم ، وأنه قتل عبيد بن الأبرص وأنه تنصر على يد عدي بن زيد

في حين يؤكد أنه كان عابد وثني . (٦٠)

كل ما ذكرت من القرائن يجعلنا قادرين على عدم الاعتماد على هذه الكنية ، برصفها أحد الأدلة التي تؤيد أن المقصود بالاعتذار هو النعمان بن المنذر . وسأحاول في الآتي أن أثبت أصلها وصاحبها .

ومهما يكن من أمر هذا الملك فإن البحث في سيرته يظل من شأن أهل التاريخ ، فلربما يكشف وحشهم ماخفي من سيرته . لكن كل الذي أردته هو هدي القارئ الكريم إلى تصور واضح لما يحيط بحياة النعمان بن المنذر من غموض .

وبعد هذا من حقنا أن نسأل : من أين جاءت كل هذه السمعة للنعمان بن المنذر بحيث غطت أحياناً على سمعة غيره من الملوك الذين يحملون الاسم نفسه ؟

الذي أظنه أن ثمة عوامل قومية أضفت عليه هذا الحجم الكبير من الاهتمام . فاسمه يترن بمعركة لها بعد قومي مهم في التاريخ العربي ، واعني بها معركة ذي قار . إذ لأول

(٥٧) اليعقوبي-تاريخ المجلد الاول دار صادر-دار بيروت ١٩٦٠ ص ٢١١-٢١٢

ود. جواد علي: تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٨٦

٥٨ - حمزة الاصفهاني - تاريخ سني ملوك الارض والانباء . ص ١٣ - ١٤

٥٩ - الطبري - غوييه ج ٢ ص ٧٧٧

(٦٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ص ٢ ص ٢١٩ وقارنه بشيخو شعراء النصرانية ص ٤٤١ او حمزة

الاصفهاني-تاريخ سني ملوك الارض والانباء ص ٩٤-٩٥

مره يتندر لهذه الأمة أن تنتصف لنفسها من الفرس . (٦١) وكان طبيعياً أن تبرز هذه المعركة أيام الصراع القومي بين العرب والفرس في العراق بالذات ، وإن يبرز اسم النعمان بن المنذر شهيداً وبطلا قومياً في معركة الإنسان العربي ضد الاجتبي . وقد دهشت تماماً عندما وجدت صاحب العقد الفريد لا يذكر غيره من ملوك المناذرة والغساسنة إلا فيما ندر ، في الوقت الذي يبرز النعمان بن المنذر حامي الكيان العربي ، المدافع عن هذه الأمة في خصومتها مع الأكاسرة . (٦٢) أليس هذا دليلاً على صحة تصوري للرجل ؟ والاكثر من هذا أن الصورة هذه علقت في ذهن همض الكتاب المحدثين ، فصار عنده المجاهد من أجل وحدة الأمة العربية وجمع كلمتها . لكن صاحب الرأي لم يكلف نفسه عناء الرجوع إلى ديوان الناذرة ليرى أن الرجل الذي يتحدث عنه ليس النعمان بن المنذر وإنما النعمان بن الحارث ملك الغساسنة . (٦٣)

وبعد كل الذي قدمناه يحق لنا أن نتابع التحليل ماقبل عن صلة الناذرة الذوياني والنعمان بن المنذر . كأني والرواة عندما جعلوا الناذرة - برصفة أبرز شاعر في تلك الفترة - أقرب الشعراء إلى قلب هذا الملك ، تحيروا في نسج قصة الصلة ، وما اعترأها من جذب وشد . وبخاصة عندما وجدوا أن ديوان الشاعر لم يتقدم من مستلزمات القصة هذه خطأ واحداً إلا ما كان من أمر اعتذاره . فهم لا يعرفون تماماً متى بدأت صلته بالنعمان ، ولا يعرفون

٦١ - محمد احمد جاد المولى ، على محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم - أيام العرب في الجاهلية - دار احياء الكتب العربية - مطبعة عيسى البابي الحلبي / مصر / ١٩٤٢ ص ٦٦
٦٢ - العقد الفريد : ج ٢ ص ٩-١٠ - لاحظ طبيعة الحوار الذي تحدث به النعمان إلى جماعة من شيوخ العرب .

٦٣ - لقد اخطأ الدكتور محمد نجيب البهيتي عندما تصور ان المقصود بايات الناذرة
وان يرجع النعمان نفرح ونبتهج ويأت معداً ملكها وريبعها
ويرجع إلى غسان ملك وسؤود وتلك المنى لو اننا نستطيعها
وان يهلك النعمان تعر مطيعة ويخبأ في جوف العباب قطوعها
هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، وادعى ان هذه الايات قالها الناذرة معبراً عن عظم فاجعة العرب به يوم سجنه كسرى ، والصحيح ان المقصود بالايات هو النعمان بن الحارث الغساني عند ماوردت انباء عن فقده .

د . نجيب محمد البهيتي - تاريخ الشعر العربي - دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٧ ط ٣
ص ٤٢ - ٤٣ للتأكد من صحة ماذهبنا اليه تراجع القصيدة في ديوان الناذرة - تحقيق الدكتور شكري فيصل - ص ١٢٣

بالضبط لماذا غضب عليه ؟ ولا يدرون سبب العفو عنه أو لنقل سبب رجوعه إليه . (٦٤)
ولكي لا استبق الأحداث واقطع برأيي في المسألة هذه ، سأتناول بالتحليل الأخبار
عن حكاية غضب النعمان بن المنذر على النابغة .

١ - قصة المتجردة : اهتم الاخباريون بهذه القصة ، وجعلوها السبب الأهم في غضب
الملك على الشاعر حتى بدت عند بعضهم ، وكأنها حدثت فعلا . والقصة كما يرويها صاحب
الأغاني « إن النابغة كان كبيراً عند النعمان خاصاً به ، وكان من ندمائه وأهل أنسه ، فرأى
زوجته المتجردة يوماً وغشيها تشبيهاً بالفجاءة ، فسقط نصيفها واستترت بيدها وذراعها
فكادت ذراعها تستر وجهها لعلتها وغلظها ، فقال قصيدته التي أولها :

أمن آل مية رائح أو مغتدي عجلان ذا زاد وغير مزود
فأنشدها النابغة مرة بن سعد القريعي ، فأنشدها مرة النعمان ، فامتلاً غضباً فأوعد النابغة
وتهدده ، فهرب منه فأثى قومه ، ثم شخص إلى ملوك غسان بالشام فامتحهم » .
كذلك يروي صاحب الأغاني القصة بشكل آخر فيقول : إن الذي من أجله هرب
النابغة من النعمان أنه كان والمنخل بن عبيد بن عامر اليشكري جالسين عنده . وكان النعمان
د ميماً أبرش قبيح المنظر وكان المنخل بن عبيد من أجمل العرب ، وكان يرمى بالمتجردة
زوجة النعمان ، ويتحدث العرب أن ابني النعمان منها كانا من المنخل . فقال النعمان
للنابغة : يا أبا أمانة صف المتجردة في شعرك فقال قصيدته التي وصفها فيها . فلحقت المنخل
من ذلك غيرة فقال للنعمان : ما يستطيع أن يقول هذا الشعر إلا من جربه . فوفر ذلك في
نفس النعمان . وبلغ النابغة فخافة فهرب فصار في غسان » . (٦٥)

والقصة كما تبدو ذات نسيج مهلهل ، لا تخرج عما يدور في أوساط الناس مما يتندرون
به من خفايا القصور الملكية . ولهذا السبب أجمع الكتاب المحدثون على رفضها ، ولهم
في رفضها أسباب مقبولة . (٦٦) كذلك وجدت مايؤيد أنها تدخل ضمن الأخبار المتناقضة

٦٤ - محمد حسن نائل المرصفي : دراسة الشعراء - مطبعة الاستقامة - القاهرة ١٩٤٤ ص ١٧٧

- ١٧٨ -

٦٥ - الأغاني ج ١١ ص ٨ و ١٢ و ١٤

٦٦ - د . طه حسين - من تاريخ الأدب العربي ج ١ ص ٣٠٥ . د . شوقي ضيف - العصر
الجاهلي ص ٢٧٧ . د . العشماوي - النابغة - ص ٧٩ - ٨٢ . د . الدسوقي : النابغة الديبائي

ص ١٧١

عن النعمان بن المنذر . فالمتجردة عند صاحب العقد الفريد زوج الأسود بن المنذر ، (٦٧) وعند يعقوبي زوج المنذر. (٦٨) يضاف إلى هذا أن صاحب الأغاني بدا وكأنه غير واثق من صحة مارواه لذلك تراه يقول فيما بعد: وقالوا : وكان المنخل يهوى هنداً بنت عمرو بن هند قال : فبلغ عمراً خبر المنخل فأخذه فقتله » . (٦٩)

٢- الهجاء المزعوم : ذكر صاحب الأغاني أن السبب في هرب النابغة من النعمان أن عبد القيس بن خفاف التميمي ومرة بن سعيد بن قريع السعدي عملاً هجاء في النعمان على لسانه ، وانشدا النعمان منه أبياتاً

قبح الله ثم ثنى بلعن وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأذى ويمجز عن ضرر الأقاصي ومن يخون الخيلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويفزرو ثم لا يرزأ العدو فتिला
يعني يوارث الصائغ النعمان . وكان جده لأمه صائغاً بئدك يتال له عطية . (٧٠) وقد نفى ابن قتيبة أن يكون هذا الشعر مما قاله النابغة. (٧١) كذلك يرفض المحدثون القصة بكل تفاصيلها لعدم وجود ما يبرر العداء بين النابغة وهذين الرجلين . عدا عن خلو الديران من هذه الايات . (٧٢)

وخلاصة القول إن الرواة لم يتمكنوا من تحديد السبب الذي من أجله غضب النعمان على شاعر . ومن هنا وجدنا المحدثين يقطعون برفض ما اخترعته بحيلة الأقدمين من حكايات وأشعار حول هذه المسألة . (٧٣)

لكن الذي يثير العجب أن يلجأ المحدثون إلى تفسير يستمد وجوده من زوايا حضارية آنية ، يفوق حجم النابغة ومزلته عند قومه ، عندما جعلوه سفيراً يشفع لقومه عند ملوك

٦٧- العقد الفريد ج ٥ ص ١٣٨

٦٨- يعقوبي : ص ٢١١ - ٢١٢

٦٩- الأغاني : ج ١١ ص ١٤ و ١٥

٧٠- الأغاني : ج ١١ ص ١٣

٧١- ابن قتيبة - الشعر والشعراء - ص ٩٩

٧٢- يراجع في هذا . د العشماوي - النابغة - ص ٨٣- ٨٥ وغيره . وديوان النابغة .

٧٣- د . طه حسين . من تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٢٩٩ و . د . شوقي ضيف - العصر الجاهلي ص ٢٧٢

المناذرة والغساسة . وهكذا ارادوا لغضب النعمان أن يتخذ طابعاً سياسياً لأنه تحالف مع الغساسة اعدائه ومدحهم . (٧٤)

هناك عدة أسباب تدفعنا إلى عدم التسليم بوجهة النظر هذه نذكرها في الآتي :
١ - إن ظهور الكيانات السياسية كان دافعاً مهماً على تفكك علاقة الشاعر بقبيلته . ولدونا ما يؤكد ضعف صلة النابغة بقبيلته . وهاك بعض الأسباب :

أ - كثرة الخلافات التي شبت بينه وبين شيوخ قبيلته . (٧٥)

ب - عدم اكترائه بالحروب التي خاضتها قبيلته . والا أين هو موضع حرب داحس والغبراء في شعره وهي التي شغلت بال غيره من الشعراء . (٧٦)

٢ - إن اعتذاريات النابغة لا تؤيد صحة وجهة النظر هذه . فهي في الغالب بين تذلل رخيص وبين دفاع عن نفسه لا تحتل فيه القبيلة أية مكانة .

٣ - إن مكانة شاعر المدح في اي بلاط لا تؤهله لأن يقوم بهذه المهمة . فهو في الغالب شاعر متنازل عن حريته ، مندمج تماماً بإيديولوجية الممدوح ليشيع غروره . ولذا ترى تجربته انما هي تجربة ممدوحة لا التي يستقيها من عالمه الكبير . وقد كان في سيرة النابغة ما يؤكد هذا « ٧٧ » .
من كل ما تقدم نستطيع القول انه لا الرواة القدامى ولا الكتاب المحدثون استطاعوا ان يقدموا لنا تفسيراً منطقياً لغضب النعمان على النابغة . وقد يكشف الآتي من البحث ما يجعل مسألة الصلة هذه موضع شك إن لم نقل موضع رفض .

وكما حار الرواة القدامى والمؤرخون المحدثون في إيجاد ما يجعل غضب النعمان مقبولا لدينا ، حاروا كذلك في تبرير عودته اليه . وسأحاول في الآتي تحليل الأخبار التي روت لنا قصة عودة النابغة إلى بلاط النعمان لتبين مدى تهافتها .
ذكر صاحب الأغاني في عودة النابغة إلى المناذرة خبرين

٧٤ - د . طه حسين . من تاريخ الادب العربي ج ١ ص ٣٠٤ . د . شوقي ضيف - العصر الجاهلي ص ٢٧٢ و د . المشاوي النابغة ص ٨٦

٧٥ - في الديوان مجموعة من القصائد تكشف عن عمق الخلاف بين النابغة وزعماء ذبيان . كذلك يمكن للقارئ ان يراجع في هذا ما ذكره الدكتور الدسوقي - النابغة ص ١٤١ فقد بلغ بقبيلته أن رفضت نسبته إليها إضافة إلى ما ورد في شعراء النصرانية لشيخو ص ٧٠٩

٧٦ - محمد نائل المرصفي - دراسة الشعراء ص ١٩٣ - ١٩٤

٧٧ - انظر في هذا الالوسي بلوغ الارب - ج ٣ ص ٩٠ - ٩١ . ديوان النابغة الذبياني / تحقيق فوزي عطوي - بيروت ١٩٦٩ ص ١٣

احدهما : قال حسان بن ثابت : قدمت على النعمان بن المنذر ، وقد امتدحته ، فأثيت حاجبه عصام بن شهبر فجلبت اليه . فقال : إني لأرى عريباً ، أفمن الحجاز أنت ؟ قلت . نعم . قال : فكن قحطانياً . فقلت : فأنا قحطاني . قال : فكن يثريباً . قلت : فأنا يثربي . قال : فكن خزرجياً . قلت : فأنا خزرجي . قال : فكن حسان بن ثابت . قلت : فأنا هو قال : فإني أرى أنك : إذا دخلت إليه فإنه يسألك عن جيلة بن الأيهم ويسبه فيراك أن تساعده على ذلك فقال لي عصام : بتيت علي واحدة لم أوصك بها ؛ قد بلغني أن النابغة الذبياني قدم عليه ، وإذا قدم فليس لأحد منه حظ سواه ؛ فاستأذن وانصرف مكرماً خير من أن تنصرف مجفوفاً ؛ فأقمت بإبائه شهراً . ثم قدم عليه الفزاريان وكان بينهما وبين النعمان خلل (أي خاصة) وكان معهما النابغة قد استجار بهما وسألتهما مسألة النعمان أن يرضى عنه . فضرب عليهما قبة من آدم ، ولم يشعر بأن النابغة معهما . ودس النابغة قينه تغنيه بشعره

يادار مية بالعلياء فالسند

فلما سمع الشعر قال : أقسم بالله إنه لشعر النابغة ! وسأل عنه ، فأخبر أنه مع الفزاريين فكلماه فيه فأمنه . «٧٨»

هذا ما ذكره صاحب الأغاني . ولم أورد النص بأكمله ، ومن شاء المزيد فليرجع إلى الأغاني لكنني سأحاول تحليل الخير لنرى مدى صحته .

١ - إن النص يكاد لا يختلف عن تلك الوصايا التي امتلأت بها كتب الأدب عن السلوك الذي يجب أن يعامل به الملوك . وهذه السمة تغلب عليه .

٢ - ورد في النص أن جيلة بن الأيهم كان معاصراً للنعمان بن المنذر . لكن الواقع التاريخي يكذب الرواية . ذلك أن جيلة لم يأت إلى الحكم إلا بعد موت النعمان . فالمسافة بينهما قد تتجاوز العقد (٧٩) .

٣ - يؤكد نولدكه أن حسان بن ثابت لم يخرج إلى الغساسنة أو المناذرة إلا بعد عام ٦١٠ . فهو أصغر سنّاً من النابغة وأنه يحدد عام ٥٦٠ م تاريخاً لولادته (٨٠) .

٧٨ - الأغاني . ج ١١ ص ٢٧ - ٢٨

٧٩ - انظر في هذا - نولدكه - امراء غسان - ص ٧٥ وحزمه الاصفهاني - تاريخ سني ملوك الارض والانباء ص ١٠٣ ،

٨٠ - نولدكه : امراء غسان ص ٤٥ - ٤٦ - ٧٧

٤ - ليس من المعقول أن يستجير النابذة بنزارة وهو الذي هجا سادتها وكان على خصومة دائمة معهم (٨١) .

وإمد هل يبقى لدينا من شك في أن الخبر موضوع ، ولا يمكن ان نقبله . وكأني بصاحب الاغاني خالجه بمض الشك فروى الخبر بصيغة اخرى . ولولا خشية الاطالة لذكرت الصورة الأخرى بأكملها . لكنني أروى بعضاً من الخبر : قال حسان بن ثابت : خرجت إلى النعمان ابن المنذر ، فلقيت رجلاً - وقال اليزيدي في خبره : فلقيت صائغاً من أهل فذك - فلما رأيته قال : كن يثربياً ، فقلت : الأمر كذلك . قال : كن خزرجياً ، قلت : أنا خزرجي قال كن نجارياً ، قلت : أنا نجاري ، قال : كن حسان بن ثابت ، قلت : أنا هو ... ويستمر صاحب الاغاني في ذكر الخبر حتى يصل في قوله على لسان حسان « فيينا إنا على ذلك وأنا معه في قبة له اذا رجل يرتجز حولها

أصم أم يسمع رب القبة ياأوهب الناس لعنس صلبة
ضراوة بالمشفر الأذوة ذات هباب في يديها جلبة

في لاحب كأنه الأظبة

قال فليح بن سليمان : أخذت هذا الرجز عن ابن دأب - قال : فقال : أليس بإبي أمامه ؟ قالوا : بلى . قال : فأذنوا له (٨٢) .

هذا باختصار مارواه صاحب الأغاني . ولنا في تحليل الخبر ورده سببان (١) يروي الطبري في سياق حديثة عن مولد محمد (ص) حكاية تشبه في الكثير مارواه صاحب الأغاني وهانا اختصر منها مايزيد تهافت حكاية الاصفهاني :

« من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر أما بعد : فوجه الي رجلاً عالماً بما أريد أن أسأله عنه . فوجه اليه عبد المسيح بن عمرو بن حيان بن بقبيلة الغساني . فلما قدم عليه ، قال له : اعنذك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟ قال ليخبرني الملك ، فإن كان عندي منه علم ، والا أخبرته بمن يعلمه له . فأخبره بما رأى . فقال : علم ذلك عند خال لي يسكن مشارف الشام يقال له سطيج . قال : فأثته ، فأسأله عما سألتك ، وأتني بجوابه . فركب عبد المسيح راحلته حتى قدم على سطيج . وقد اشفى على الموت . فسلم عليه وحياه . فلم يحر سطيج جواباً ،

٨١ - ديوان النابذة : تحقيق د . شكري فيصل . يمكن ملاحظة القصائد التي قالها في هجاء شيوخ فنزارة .

٨٢ - الأغاني : ج ١١ ص ٣٧ - ٣٨

فأنشأ عبد المسيح يقول :

أصم أم يسمع غطريف اليمن يافا فصل الخطاة أعيت من ومن

فلما سمع سطيج شعره رفع رأسه وقال عبدالمسيح (٨٣)

إن هذه الحكاية تقترب في تركيبها من الحكاية التي رواها صاحب الأغاني ، وهذا مادفعنا إلى الشك . وقد عزز من شكنا كون كثير من الاخبار التي تحدثت عن سيرة حسان بن ثابت ، عبثت بها أيدي الرواة بحيث صرنا لانقبل ما يروى عنه إلا بعد طول نظر . (٨٤)
(٢) إن مجرد وجود اسم ابن دأب في رواية صاحب الأغاني ، يجعلنا لانقبل بها ، لأن الرجل مشكوك في ذمته . (٨٥)

الآخر : قيل ان السبب في رجوعه الى النعمان بعد هربه منه ، أنه باغى أنه عليل لا يرجى ، فأقلقه ذلك ، ولم يملك الصبر على البعد عنه مع علته ، وما ضافه عليه وأشفق من حدوثه به فصار اليه . (٨٦)

ويبدو ان المحدثين يرفضون القصة هذه في حين يهابون بالقصة الاولى . من ذلك ما فعل الدكتور شوقي ضيف . وقد دفعه رفضه قصه المرض أن يسقط من شعر النابغة كل ما يتصل بها . (٨٧)

والحق ان الدكتور شوقي ضيف يبدو محقاً في رفضه ، وإلا كيف نجد في ديوان النابغة ما يؤيد ذلك الود العميق بين النابغة والنعمان . لقد مات النعمان قبل النابغة ولكننا لا نجد به يرثيه بيت واحد . فأين هو الحب ، وأين هو الوفاء ؟
غير ان لنا في المسألة رأياً ربما يجعل من هذه القصة ما نقبل به عندما نضعها في سياقها الصحيح . وقبل ان انهي الحديث في خبر عودة النابغة ، أورد في الآتي ما يجعلنا لانقبل بالخبر جملة وتفصيلاً :

٨٣ - الطبري - غوييه ص ٩٨١ - ٩٨٣

٨٤ - انظر في هذا ، ابن سلام - الطبقات - ١٧٩ ، والدكتور شوقي ضيف - العصر الجاهلي - ص ١٦٥ والدكتور طه حسين - تاريخ الادب العربي - ج ١ ص ٢٩٩ ، فقد سبق لهم أن أكدوا أن كثيراً من أخبار حسان بن ثابت عبثت بها أيدي الرواة .

٨٥ - ياقوت الحموي - معجم الأدباء ج ٦ (ط مر جليوث) الطبعة الثانية ص ١١٠ والزركلي - الأعلام - ج ٥ ط ٣ ص ٢٩٨ لقد أكد الرجلان أن ابن دأب لم يكن بالرجل الذي يمكن أن ننق به .

٨٦ - الأغاني ج ١١ ص ٢٩

٨٧ - د . شوقي ضيف - العصر الجاهلي - ص - ٢٧٣

١ - يرى عدد من المؤرخين ان النعمان بن المنذر تولى عرش الحيرة سنة ٥٨٠ واستمر حكمه اثنتين وعشرين سنة (٨٨) وان النابغة ظل على صلته بالغساسنة بعد هذا التاريخ . فقد رثى النعمان بن الحارث المتوفي في حدود العقد الأول - القرن السابع الميلادي (٨٩) بتصديده التي مطلعها :

دعاك الهوى واستجھلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل (٩٠)
بل الاكثر من هذا ان هو حدد عام ٦٥٠م تاريخاً لوفاة النعمان بن الحارث (٩١) ثم انقطع فيما بعد الى خلفه عمرو بن الحارث الذي تجاوز حكمه العقد لاول من القرن (٩٢) أما وفاة النابغة فكانت في هذه الفترة ايضاً . ويجعلها شيخو في عام ٦٠٤م . نفسه . (٩٣) ترى متى تسنى له أن يذهب الى المناذرة .

وعليه ان الواقع التاريخي لا يجعلنا نقبل بعودة النابغة الى بلاط المناذرة .
٢ - إن مصير طرفة بن العبد وعبيد بن الابرص وعدي بن زيد يجعلنا نشك في امكانية عودة النابغة . ولو كان الامر بهذه السهولة ، لكان عدي بن زيد أولى بالصنح وبخاصة إذا سلمنا جدلاً بقبول الحكاية التي رويت عن دوره في تنم النعمان بن المنذر عرش الحيرة . وعليه فليس في سلوك ملوك المناذرة ، والنعمان بخاصة ما يحفز النابغة على العودة إلى بلاط الحيرة .

إن كل ما ذكرناه يدفعنا الى عدم الاقتناع بوجود ما يبرز غضب النعمان بن المنذر على النابغة اللهم إلا إذا استبدلنا كلمة الغضب بالحقد عليه ، لانه اختص بخصومه . وعند ذاك تسقط دعوى عودته ايضاً ، لأن كل الدلائل تشير إلى عمق الروابط بينه وبين الغساسنة مما يغنيه

٨٨ - روتشتاين .. ص ١١١

٨٩ - نولدكة - امراء غسان ص ٤٢-٤٣

٩٠ - ديوان النابغة - تحقيق د . شكري فيصل ص ١١٣ وما بعدها

٩١ - الدسوقي - النابغة - ص ١٣٨ نقلاً عن هوار

٩٢ - نولدكة - امراء غسان : ص ٥٧ وشيخو - شعراء النصرانية - يذكر الأصمعي أن عمرو بن الحارث خلف النعمان بن الحارث ص ٦٧٨

٩٣ - شيخو - شعراء النصرانية - ص ٦٠٤ والدسوقي - النابغة ص ١٣٨

عن اللجوء إلى عدوهم . وهكذا فإننا نستبعد أن يكون المقصود بالاعتذاريات هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

من هنا لابد أن يطرح السؤال الآتي : ترى من المقصود باعتذاريات النابذة بعد أن استبعدنا النعمان بن المنذر ؟ للاجابة عن هذا السؤال نقول : إن التاريخ الذي حدد لصلة النابذة بالدولتين يمتدنا إلى ثلاث فرضيات :

١ - أن يكون المقصود بالاعتذاريات هو المنذر والد النعمان . فقد ذكر يعقوبي ، أن النابذة كان قد شبب بأمراءه في قصيدته التي يتناول فيها :

سقط النصف ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقتنا وإلبد
فندر المنذر دمه ، فهرب إلى الشام إلى ملوك غسان ، ثم اعتذر إلى المنذر بشعره الذي يتول فيه :
فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع
ويتول

فيثبت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زار من الأسد (٩٤)
إلا أن رواية يعقوبي تبدو غير مقبولة للأسباب الآتية :

أ - إنه جعل من قصته المتجردة السبب الوحيد لغضبه . وقد قلنا كلمتنا فيها .

ب - تأييد لنا أن النابذة لم يسبق له أن ارتبط بهذا الملك .

ج - إن الاسم الذي يتردد في الاعتذاريات هو النعمان وليس المنذر .

(٢) أن يكون المقصود بالاعتذاريات هو النعمان بن وائل بن الجراح الكلبي . والذي يدعو إلى مناقشة هذه الفرضية ، كون هذا الرجل يحتل مكانة في شعر النابذة . لكن الفرضية تبدو غير مقبولة لأننا لانملك صورة واضحة عن علاقة النابذة به من جهة ، كما أنه ليس في الاخبار ما يشير إلى أن الصلة بينهما كانت قد تطورت إلى الحد الذي يجعله يضطر في لحظة من اللحظات إلى الاعتذار .

(٣) هناك شخصية مهمة في حياة النابذة تجاهلها الرواة على الرغم من أن الديوان ينير أمامنا درباً واضحاً قد يوصلنا إلى ترجيح الفرضية الثالثة . واعني بهذه الشخصية النعمان بن الحارث الملك الغساني . فقد خصه النابذة بالكثير من شعره الذي يكشف عن عمق الصلة بينهما . وكان

له . أي فعه إلى طلب الصفح : بـ ان ارتكب بوق هذا الملك أيثر غضبه . وسأ-اول
في الاتي تأكيد ما ذهبت اليه :

(١) جاء في الاخبار ما يشير إلى أن عهد الـابـة بالغساسنة يود إلى أيام حكم الحارث
بن جبلة صاحب يوم حليلة . فقد ذكر ابن قتيبة أن الـابـة الـابـاني قصده رغبة في أن
يلقى الأسرى من بني أسد فأطلقهم . (٩٥)

كذلك يتم لنا الايران صورة واضحة عن عمق صلة الـابـة بالغساسنة . من ذلك ما قاله
الشاعر في البائية التي يباح بها عمرو بن الحارث

علي لعمر نعمة بعد نعمة لوالده ليست بذات عقارب (٩٦)
وإذا عرفنا أن الـابـة كان على صلة بالعمان بن الحارث الذي سبق أخاه عمراً عندها يضح
لنا مدى المسافة الزمنية التي قطعها الـابـة في بلاط الغساسنة .

ولعل هذا ما يجعلنا نقبل بالرأي القائل إن اتصاله بملوك الغساسنة كان أولاً (٩٧) .
لكن الذي نأخذه على صاحب الرأي توقفه عند هذا الحد ، مما جعله يورر وبالتالي
في نفس الحلقة المفرغة التي أعيت غيره بـ ثماً عن مبرر يدعو الـابـة إلى التخلي عن الغساسنة
والانجاء إلى المناذرة .

على ان عمق الصلة قد يبدو أكثر جلاءً عندما نأبج اخبار الـابـة مع النعمان بن الحارث
ذلك أنه عرف هذا الملك الغساني ومنذ نعومة أظفاره ، وقال فيه آياتاً ذكرها صاحب الأغاني :

هذا غلام حسن وجهه مقتبل الخير سريرع الثمام
للحارث الأكبر والحارث الـ أصغر والأعرج خير الأنام
ثم لهند ولهند فقد أسرع في الخيرات منه إمام
خمسة آباء وهم ماهم هم خير من يثر ب صوب الغمام (٩٨)
وهي آيات تمثل في الكثير اسلوب الـابـة في المدح ، لأنه عودنا الاياشر الطلب ، وانما

٩٥ - ابن قتيبة - المعارف - دار الكتب / مصر / ١٩٦٠ ص ٦٤٢

٩٦ - ديوان النابغة - تحقيق د . شكري فيصل - القصيدة ص ٥٤

٩٧ - د . العشماوي - النابغة - ص ٢٢

٩٨ - الأغاني ج ١١ ص ١٩٠-٢٠ وابن قتيبة - المعارف - ص ٦٤٣ أثبت الايات كما جاءت في الأغاني
والمعارف وكنت قبل ذلك قد أثبتها كما جاءت في الديوان

يذكر الممدوح بما فعله آبائوه ، مما يجعله في وضع يصعب عليه التدخل من تقديم ما ينبغي الحصول عليه . (٩٩)

وهذا ماجعل بعض المؤرخين يرجحون نسبتها للنايفة ويتخذونها سنداً فيما ذكروه من اخبار ملوك غسان (١٠٠)

وعندما شب الخلاف بين النعمان بن الحارث وذيان وجدنا النايفة يتف مع صاحبه محذراً ناصحاً قومه ألا يتعرضوا بالأذى لأملاك الملك ، فيقول :

لقد نهيت بني ذبيان أمر وعن تربهم في كل أصغار (١٠١)
والقصيدة تكشف عن معرفة جيدة بالنعمان عدا عن كونها تعداداً لصولاته ، مما يجعل خوفه منه مبرراً على خلاف ماتراه قبيلته

قد عبرتني بنو ذبيان خشيته وهل علي بأن أخشاه من عار
ويبدو أن النايفة الذي أراد أن يقي على بعض من حبال الوصل مع اهله أو من كانوا متحالفين معهم ، أتى ما أغضب هذا الملك . فقد ذكر الرواة في معرض حديثهم عن ومناسبة قوله قصيدته التي مطلعها :

لقد قلت للنعمان يوم لقيته يريده بني حن ببرقة صادر
أن النعمان بن الحارث أراد غزو بني حن بن حزام وهم من بني عذرة ، فنهاه النايفة عن ذلك وأخبره أنهم في حرة بلاد شديدة ، فأبى عليه . فبعث الى قومه يخبرهم بغزو النعمان ويأمرهم أن يمدوا بني حن ، ففعلوا ، فهزموا غسان . (١٠٢)

وطبيعي وحالة هذه أن تحدث جفوة بين الملك وشاعره . ولعله ترك الغساسنة ، واتجه إلى اعماق الجزيرة ، ولا نقول إلى المناذرة ، إذ سرعان ما يعود الصفاء إلى تلك العلاقة . أما كيف عادت العلاقة الى سابق عهدها ، فإنني وجدت في قصة مرض النعمان بن المنذر

٩٩- ايليا حاوي - النايفة - سياسته وفنه ونفسيته - دار الكتاب اللبناني - مطبعة مؤسسة خليفة -

بيروت ص ٧٧

١٠٠- المسعودي - مروج الذهب ج ٢ - منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٦٦ ص ٢٣٤ ،

ونولده - امراء غسان - ص ٣٦

١٠١ - ديوان النايفة : تحقيق د . شكري فيصل - القصيدة - ص ٨٠ وما بعدها .

١٠٢ - شيخو - شعراء النصرانية - ص ٦٨١ وديوان النايفة الديباني - ضمن مختار الشعر الجاهلي أو دواوين

الشعراء الستة ط ٤ شرح وترتيب عبد المتعال الصعيدي - مكتبة القاهرة ١٩٦٨ ص ٢٢٩

التي أشرت اليها من قبل ما يجعلها مقبولة : ، لو جعلنا المريدن هو النعمان بن الحارث وليس النعمان ابن المنذر . وقد وجدنا في الاغاني ما يشير الى أن اللقاء المزعوم بين حسان والنابعة كان قد تم في بلاط الغساسنة كما روى محمد بن صالح عن الواقدي . (١٠٣) ولإني وإن كنت قد أثرت شكوكاً عن لقاء حسان بالنابعة من قبل ، واعترف الآن ان صاحب الاغاني لا يترف بهذا حيث يتناول : (ولعله غلط) ، إلا اني اطلب من القارئ الكريم أن يمود قليلاً الى ديوان النابعة ففيه من الشواهد ما يري . صحة ما ذهبت اليه . ولعل أول ما يري هذا أبيات النابعة التي يتناول فيها :

فإن يرجع النعمان نفرح ونتهج

فهذه الابيات ترىنا كيف جزع النابعة يرم جاءه خبر خروجه في غزوه كما يتناول الاصمعي وما أشاعه اعداء النعمان بن الحارث من انه قد هلك . وقد تكون نفس الغزوة التي نهاه النابعة عنها ، مما جعله يتبل توبته . وهنا يحذر بي أن أشير إلى اختلافي مع الدكتور شوقي ضيف في موقفه من بعض مارواه الاصمعي من شعر النابعة . ذلك أني أرى صحة نسبة القصيدة التي مطلعها :

كتمت لك ليلاً بالحمومين ساهراً وهمين هماً مستكناً وظاهراً الى النابعة ، مع القول إن المقصود بها ليس النعمان بن المنذر وإنما النعمان بن الحارث . ومن شاء الدليل فليقرأ القصيدة على مهل ، فلا بد ان يجد فيها ما يربط بين حكاية غزوة الملك الغساني ، وما تعرض له في هذه الغزوة . وإن شئنا دليلاً آخر فلإننا ندعو القارئ الكريم الى قراءة قصيدة النابعة في رثاء النعمان الغساني والتي مطلعها :

دعاك الهوى واستجهلتك المنازل وكيف تصابي المرء والشيب شامل فهي تنفخ في نفس الجوى الذي قبلت فيه الرائية التي اشرت اليها . وبعد أليس في كل ما ذكرناه ما يبرر عمق الصلة بين هذا الملك الغساني والنابعة . ولإني مضطر إلى أن اثبت في هذه اللحظة الأبيات التي يزعم البعض أنه رثى بها النعمان بن المنذر لتبين معاً عظم الفارق بين الرثائين :

من يطلب الدهر تدركه مخالبه والدهر بالوتر ناج غير مطلوب
ما من أناس ذوي مجد ومكرمة ألا يشد عليه شدة الذيب

حتى يبيد على عمد سراتهم
 إني وجدت سهام الموت معرضة
 بالنافذات من التبل المصاب
 بكل حتف من الأجيال مكتوب (١٠٤)
 ألا يكن القول أن مثل هذه الآيات لا تناسب وما قيل عن صلة الآيات بالنعمان بن المنذر. وإني
 لأشك أن يكون الآيات قد قالها، لبعدها كل البعد عن طبيعة عطائه الشعري. ألا يذهب القارى
 الكريم إلى الاعتقاد بأن صلة الآيات بالنعمان قد انقطعت بد موت النعمان أجل ظل على
 صلته بهم. فقد اختصر بعمرو بن الحارث خالف النعمان ومدحاً، بتصيد هي من شرر الشعر
 العربي :

كلني لهمي يا أميمة ناصب

وليل أقاسيه بلي الكواكب

والحادث عن صلة الآيات بملوك غسان ليست ذات بـ بـ زواني فحسب بل نراها في تأثره
 بالأخلاقية المسيحية. فعدا الذي قيل عنه من أنه « ممن حرموا الخمرة والسكر والازلام في
 الجاهلية » (١٠٥) لينا في إيران. ويشهد بهذا اللقاء الروحي بين الشاعر وملوك غسان. فهو
 عندما يمدح عمرو بن الحارث في الجاهلية بالأخلاقية المسيحية ويقول :

محلتهم ذات الإله ويوم
 رقاق النعال طيب حجاتهم
 قريوم فما يرجون غير العراقب
 يحبون بـ ريسان يوم السباب
 يسونون أجساداً قديماً لنعيها
 بخالصة الأردن خضر المناكب
 ولا يحسبون الخير لأشرباه
 ولا يحسبون الشر ضريراً (١٠٦)

إن هذا الإعجاب يتحول عند الآيات إلى دعوة عملية إلى التسامح ورفض اسلوب التظاحن
 الذي كان سائداً في العلاقات القبلية والظاهر أن هذه الدعوة لم تلق استجابة من لدن قومه
 الوثنيين فزادوا من عنف موقفهم السابي تجاهه. إن أصالة الخير التي تعمقت في نفس الآيات
 ربما كانت سبباً في ذلك الإعجاب الشديد الذي لقيه من قبل النقاد المسلمين بـ بالحكم الذي
 أصدره عمر بن الخطاب (ر) يوم جعله أشهر العرب. (١٠٧)

١٠٤ - الأغاني : ج ٢ ص ١٤٦ : وردت هذه الايات ضمن ترجمته لعدي بن زيد

١٠٥ - محمد بن حبيب - المحبر - مطبعة جمعية دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد ١٩٤٢ ص ٢٣٨

١٠٦ - ديوان النابغة الذبياني - ضمن مختار الشعر الجاهلي أو دواوين الشعراء الستة الجاهلية - شرح
 وترتيب عبد المتعال الصمدي - القصيدة ص ٢٠٥

١٠٧ - الأغاني ج ١١ ص ٤ - ٥

٢ - إن المواطن التي كانت لبني ذويان هي أقرب الى الشام منها الى العراق . وفي هذا يتول ديرنبورج « وكان ذو ذويان يستقرون في جهة تسمى الشربة » . (١٠٨) وقد بحثت عن هذا المكان فوجدت أنه موضع بين السليلة والريانة . وقيل اذا جاوزت النقرة ومادان تريد مكة وقعت في الشربة (١٠٩) . ويبدو من تحديد موسى أن أرض النقرة تمتد بين دمشق ونهر تبوك القديم - وهو معروف الآن بالزرقا - يحدها من الشرق جبل حوران والمنطقة البركانية الوعرة (١١٠) .

كذلك تتبعت مواطن القبائل الأخرى التي كانت متحالفة مع قوم النابنة فوجدتها في حوالي تبوك أو في الجهات الغربية من شمال الجزيرة العربية (١١١) . والأهم من هذا كله أنني أحصيت الأماكن التي يكثر ترددها في شعر النابنة فوجدتها لا تخرج عن سلطة الغساسنة الذين توغلوا في أعماق الجزيرة العربية حتى واحة العلا وخيبر وحائل (١١٢) . في حين لا يرد اسم الحيرة إلا مرة واحدة في الديوان ، وهو مرتبط برحالها .

والأدم قد خيست فتلا مرافقها مشدودة برحال الحيرة الجدد ومعروف ان الرحال هذه كانت مشهورة في العالم العربي آنذاك ، وهي لا تشكل بؤرة حال دليلا يؤكد معرفة النابنة بهذه المدينة . وما يجعلنا نقنع بأثر العامل الجغرافي ما ذكره بلاشير من أن انجذاب ذويان الى بلاط المناذرة كان الأكثر ندرة إذا ما قورن وانجذاب القبائل العربية الأخرى (١١٣) .

من كل ما تقدم يمكنني القول إن الواقع الجغرافي يتف مع الواقع التاريخي دليلا على صحة ما ذهب اليه من أن النابغة الذياني لم يتنكر يوماً للغساسنة ولم يتخل عنهم إلى

١٠٨ - د . المشاوي - النابغة - ص ٢٢

١٠٩ - العقد الفريد - ج ٥ ص ١٤٧ - الحاشية

١١٠ - موسل . شمال الحجاز - ترجمة د . عبد المحسن الحسني - مطابع ريسيس - الأسكندرية ١٩٥٢ ص ٧٩

١١١ - موسل - شمال الحجاز - ص ١٤٣

١١٢ - موسل شمال الحجاز - ص ٣١ لولا خشية الإطالة ذكرت هذه المواضع والمناسبة ، لكنني ترك الأمر للقاريء الكريم

١١٣ - بلاشير - تاريخ الأدب العربي - ج ٢ ص ١٨٢

خصومهم المناذرة . وهذا بلا شك يدعم ما قلته من أن المقصود بالاعتذاريات كان النعمان بن الحارث على الأرجح .

بتي عليّ أن أتناول بالتحليل مسألتين لهما صلة بالرأي المطروح ، فلعل في مناقشي لهما ما يزيل شكاً قد يساور البعض في صحة ما ذهبت إليه :

(١) ورد في إحدى الاعتذاريات قول النابذة

ملوك واخوان إذا ما اتيتهم أحكم في اموالهم وأقرب

ترى الا يمكن أن يكون دليلاً على اتصال النابذة بملوك المناذرة ، عندما نقرب الآية كما فعلت وجعلت المقصود اعتذار أحد ملوك الغساسنة . للرد على هذا أقول إن لفظة ملك كانت تطلق كذلك على رؤساء العشائر وشيوخ المقاطعات . ففي حديث الرواة عن يرم شعب جبلة انهم اطلقوا على لقيط بن الجون الكلبي لقب ملك (١١٤) لهذا أقول ان وجودها في شعر النابذة ليس دليلاً على كون المقصود بها ملوك المناذرة ، بل الأرجح أن يكون المقصود بها بعضاً من رؤساء العشائر وبخاصة اذا أمعنا النظر في الكلمة التي تليها (أخوان) فوجودها يمثل حداً بين ما ذهب البعض إليه وما اذهب إليه الآن . ولعي لاكون مخطئاً اذا قلت ان المقصود بـ (ملوك اخوان) شيوخ عذرة أو غيرهم ممن نرجح استجارته بهم ومد غضب النعمان عليه .

(٢) رب سائل يسأل عن موقفنا من الآيات التي ترد فيها كنية النعمان بـ (أبي قابرس) ، إذا لم يكن النعمان بن المنذر المقصود بالاعتذار ؟

للرد على هذا السؤال أذكر القارئ الكريم بما سبق ان قلته في الكنية نفسها ، مضيفاً الى ما سبق قوله السبين الاتيين :

١ - وجدت في كتب التاريخ التي اعتمدت على مصادر يرنانية ، أن الرومان كانوا يطلقون على بعض ملوك الغساسنة لقب (فلافيوس) ، كما سمو الحارث بن جبلة (باسيليوس) ومعناه في لسانهم الملك (١١٥) ألا يمكن ان تكون الكنية محرفة عن فلافيوس ، وبخاصة اذا عرفنا ان مثل كلمة قابرس المختومة بهذه اللسنيين اشد التصاقاً باللاتينية . وليس بعيد عن الاذهان ما فعله الاخباريون العرب باسماء ملوك الرومان وكيف حرف بعضهم بشكل ابعدها عن الأصل (١١٦)

١١٤ - د. جواد علي - تاريخ العرب قبل الاسلام ج ٤ ص ٩٣

١١٥ - جرجي زيدان - العرب قبل الاسلام - ص ٢٥٦

١١٦ - تولدكه - امراء غسان - ص ٧-٨ انظر كيف حرف انسكاسيوس إلى نوثر

وبعد هذا الا تكون كلمة فلافيوس أقرب إلى قابرس ، وعندما يكون ابرقابرس هو النعمان ابن الحارث .

ب- واذا سلمنا جدلا بأن الكنية تختص بالنعمان بن المنذر ، فان قراءة دقيقة للاعتذاريات تكشف عن امكانية حذف الأبيات التي ترد فيها هذه الكنية . ذلك أنني احسست ان الأبيات التي احتوت الكنية كانت في الغالب قد فرضت على القصيدة مما أدخل بالبناء الداخلي ، ولو حذف لاستقامت للقصيدة وحدتها .

من كل ماتقدم يمكنني القول ان الاخباريين هم الذين صنعوا هذا الاطار التاريخي المتناقض والمتهاافت للاعتذاريات بما يتلاءم ومتطلبات عصرهم ، وقد سائرهم في هذا الكتاب المحدثون . في حين يستطيع القارئ الكريم ان يجد من الأدلة مايتنبهه بأن المقصود بالاعتذاريات ليس النعمان بن المنذر بل النعمان بن الحارث . وإني لأذهب إلى أكثر من هذا فأنتفي ان يكون النابذة قد اتصل بالمناذرة ومنحهم شيئاً من عطائه الشعري .